

الفصل الأول

خصائص الدعوة إلى الله

- أولاً: وحدة مصدرها.
- ثانياً: فطرية منهجها.
- ثالثاً: ثباتها وامتدادها مع الزمن.
- رابعاً: قيامها على الإقناع والحُجة.
- خامساً: غايتها الرحمة للعالمين.

الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ذات خصائص ومُيزَات لا تتحقَّق في غيرها من الدَّعَوَات،
ومن هذه الخصائص:

أولاً: وحدة مصدرها

الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ واحدة من حيث مصدرها.

فالأصل الذي تقوم عليه الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ هو ((الإيمان بالله وحده لا شريك له))،
ومن هذا الأصل تستمدُّ مقومات حياتها وامتدادها وثباتها، وعليه تستندُ أخلاقها، ومنه
تستمدُّ الباعثَ على العمل في جميع المجالات.

ورُسلَ اللهُ جميعاً بُعثوا بهذا الأصل، ودَّعوا إليه، سواءً منهم مَنْ أُرسلَ إلى قومه
خاصةً، أو بُعثَ للناس عامةً، وهو خاتمهم ﷺ.

إنهم جميعاً يأخذون من مشكاة واحدة، ويدعون إلى إله واحد ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون ﴾^(١)
﴿ وَسَقَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً
يُعْبُدُونَ ﴾^(٢)

﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾^(٣)

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) الزخرف: ٤٥.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

إنه دينٌ واحدٌ، والكون بفطرته مُعَبَّرٌ عنه ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ﴿١﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٢﴾ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣﴾ ﴿١﴾
ومن ثمَّ كان تكذيبُ أحدهم تكذيباً لهم جميعاً.

قال تعالى في حق نوح عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١﴾

وقال سبحانه في حق هود عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١﴾

ويُصِّدُ القرآن الكريم كذلك على أن التفرقة بين المرسلين كُفْرٌ بهم جميعاً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ﴿١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٣﴾ ﴿١﴾

* * *

(١) آل عمران: ٨٣ - ٨٥.

(٢) الشعراء: ١٠٥.

(٣) الشعراء: ١٢٣.

(٤) النساء: ١٥٠ - ١٥٢.

ثانياً: فطرية منجمها

إنَّ منهجَ الأنبياءِ في الدَّعوةِ إلى الله تعالى واضحُ الدلائل، بيِّنُ المعالم، مستقيمٌ لا عوجَ فيه.. يدعو إلى الحق، ويهدي إلى صراطٍ مستقيم.

إنَّه منهجٌ فطريٌّ في حقيقته، وأدلته، وغايته.

إنَّه المنهج الذي يَدُلُّ النَّاسَ على صِدْقِ الإخلاصِ لله، وحُسْنِ الاتِّباعِ لرُسُلِهِ عليهم السلام.

يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والاستقامة عليه ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١٧﴾ * مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَآتَقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١٨﴾ ﴾^(١)

اتِّساقٌ كاملٌ بين فطرة الإنسان وما يُدعى إليه.

والإنسان خاضعٌ بفطرته، وكلُّ مَنْ في السماوات والأرض قد أسلمَ - طَوْعًا وكرهاً - لرَبِّه ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُمْ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾^(٢)

واستجابةُ الإنسان - بإرادته لله - وللرسول اتِّساقٌ مع فطرة كلِّ شيء في

(١) الروم : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) آل عمران : ٨٣ .

التسبيح بحمد ربه ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١)

وبداهة الفطرة أن من يخلق هو الذي يُعبَد، وأن من يرزق هو الذي يُشكَّر ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) وَإِنْ تَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴾ (٣) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخَلَّقُونَ ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (٤) إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿ (٥)

ومن المصادمة للفطرة، والمخالفة لها أن يُعبَدَ مَنْ لَا يَخْلُقُ، وأن يُشكَّرَ مَنْ لَا يرزق ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٦)

تلك هي دعوة الأنبياء في فطرتها وامتدادها مع الزمن، تُثَلَّى في كتاب عزيز ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَسْطُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٧)

وهو محفوظ بحفظ الله له، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، ساطع

(١) الإسراء : ٤٤ .

(٢) النحل : ١٧-٢٢ .

(٣) العنكبوت : ١٧ .

(٤) فصلت : ٤٢ .

بنوره ﴿ تَقَشَّعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ تَخَشَّوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١)

سَلِ التَّارِيخَ: كَمْ مَرَّةً تَنَكَّرَ الدَّهْرُ لِدَوْلِ الإِسْلَامِ، وَتَسَلَّطَ الْفُجَّارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَأَتَخَنُوا فِيهِمُ الْقِتَالَ، وَأَكْرَهُوا أُمَّمًا مِنْهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَأَحْرَقُوا الْكُتُبَ، وَهَدَمُوا الْمَسَاجِدَ، وَصَنَعُوا مَا كَانَ يَكْفِي الْقَلِيلُ مِنْهُ لَضِياعِ هَذَا الْقُرْآنِ - كَلًّا أَوْ بَعْضًا - كَمَا فَعَلَ بِالْكُتُبِ قَبْلَهُ؟ لَوْلَا أَنْ يَدَّ الْعَنَابَةَ تَحْرُسُهُ، فَبَقِيَ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْمَعَامِعِ (٢) رَافِعًا رَايَاتِهِ وَأَعْلَامَهُ، حَافِظًا آيَاتِهِ وَأَحْكَامَهُ.

بَلْ اسْأَلْ صُحُفَ الْأَخْبَارِ الْيَوْمِيَّةِ: كَمْ مِنَ الْقَنَاظِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ تُنْفَقُ فِي كُلِّ عَامٍ لِمَحْوِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَصَدِّ النَّاسِ عَنِ الإِسْلَامِ بِالتَّضْلِيلِ وَالبُهْتَانِ، وَالخِدَاعِ وَالإِغْرَاءِ، ثُمَّ لَا يَظْفَرُ أَهْلُهَا - مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ - إِلَّا بِمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْشَرُونَ ﴾ (٣)

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِي يُمَسِّكُهُ أَنْ يَزُولَ هُوَ الَّذِي يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهُ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِأَهْدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٤)

وَاللهُ بِالْبَالِغِ أَمْرِهِ، وَمُتِمُّ نُورِهِ، فَظَهَرَ وَسَيَقَىٰ ظَاهِرًا لَا يَضُرُّهُ مَنْ خَالَفَهُ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ

(١) الزمر: ٢٣.

(٢) المعامع: شدة الحرب، والجهد في القتال.

(٣) الأنفال: ٣٦.

(٤) الصف: ٩.

أمرُ الله تعالى. (١)

إن القرآن الكريم - وهو كتابُ الدَّعوةِ ودستورها - يُمسكُ بزمامِ النفوس - وهي تنجذبُ إليه مضيئةً مُشرقةً، آمنةً مطمئنةً، عادلةً معتدلةً - كما تُمسكُ الشمسُ - بإذن ربِّها - لكلِّ ما ارتبطَ بها، وهي تجودُ بأسبابِ الحياة، وتبعثُ الدَّفءَ والثَّورَ والضيءَ على أهل الأرض.

والذي جعل الشمسَ ضياءً هو الذي جعل القرآنَ نوراً ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٠﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿١٧١﴾ ﴾ (٢)

ويتزول هذا القرآن وحفظه صانَ الله تعالى أمرَ الدعوةِ إليه، وأتاح للأجيال كلها أن ترى الدَّعوةَ - في فطرتها وحققتها - على ألسنةِ الرُّسُلِ جميعاً؛ حتى لا يظلمها الناسُ، أو تنحرف بها أهواؤهم.

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٧٢﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٣)

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (٤)

(١) النبا العظيم. د: محمد عبد الله دراز، ص ٤٣، ٤٤، ط ٨ سنة ١٤١٦هـ.

(٢) الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٣) طه: ٩٨، ٩٩.

(٤) يوسف: ١١١.

ثالثاً: ثباتها وامتدادها مع الزمن

الإسلام هو دين الفطرة. لم يُرسل الله رسولاَ إلا به، ولن يقبل من أحدٍ ديناً غيره.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِقَايِمَتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ؕ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢١﴾﴾^(١)

والله - بما أنزل وحفظ - قد ضمن لهذه الدعوة أسباب البقاء، فكان من خصائصها (الثبات).

قد يُقتلُ الدعاةُ وهي حيةٌ في نفوسهم، مُمتدةٌ بنورها، لا تموت بموتِ أجسادهم، بل تحيا من بعدهم، وتُحقق لهم الحياة.

وكم من أممٍ صارعوها فصرعتهم، وصدّوا عنها فضّل سعيهم، وبقيت مع الزمن كالشمس في الكون، تغربُ لكي تُشرقَ، فيظنُّ الجاهلون بحقيقتها أنها غابت ولن تعود، فإذا ما اشتدَّ ظلامُ الليل ظهرتْ طلائعُها، ورأى الناسُ نجماً مُتألّقاً في سمائها يُؤدّن بطلوعِها.. وما توقفت الشمس عن عملها، أو انحرفت عن مدارها، ولكن الناسُ يُحجّبون إذا لفهم ظلامٌ، أو غشيتهم ظلمةُ القبور.

(١) آل عمران: ١٩، ٢٠.

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (١)

وكتيراً ما يُخدَعُ الناسُ بصَوْلَةِ الباطل، ويُفتنونَ برينته، فيظنون أن الجورَ قد خلا له، وما يذرونَ أنهم به مفتونون.

وقديماً قال الذين يُريدون الحياة الدنيا ﴿ يَلْتَمِسُ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٢)، فلما حُسفت الأرضُ به وبداره استفاق المفتونون ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣)

فالباطل لا ثبات له وإن تطاولَ وعرَبَد، زَبَدٌ لا يَمُكُثُ في الأرض، والحقُّ كالماء ثابتٌ أصيلٌ، نافعٌ مفيدٌ.

وقد يظفر الزَّبَدُ، ويعلو فوقَ الماء، ويُعلِنُ - في تطاولٍ - أنه غالبٌ منتصِرٌ، ولكن لا يلبثُ أن يبدو على حقيقته غُثَاءً، ويذهبُ حُفَاءً، ويبقى الماءُ بأصالته كما جعله الله، وجعل منه كلَّ شيءٍ حيٍّ.

* * *

وقديماً تطاول فرعونُ أمامَ الدَّعْوَةِ إلى الله، وقال في صَلفٍ أعمى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ (٤)

(١) النور: من الآية ٤٠.

(٢) القصص: ٧٩.

(٣) القصص: ٨٢.

(٤) القصص: ٣٨.

ولم يلبث - حين أدركه الغرقُ - أن قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
ءَامَنْتُ بِهِم بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١)

فَبَدَأَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ضَعِيفاً هَزِيلًا خَائِباً، وَمِنْ قَبْلِ كَانَ يَقُولُ لِلنَّاسِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ
الْأَعْلَى﴾ (٢)، وَيَتَوَعَّدُ مَنْ يَدْعُوهُ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ قَائِلاً: ﴿لَئِنْ آخَذْتِ إِلَهًا
غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ (٣) !!

وذهب فرعونُ وَمَنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِ، وَبَقِيَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ مَمْتَدَّةً مَعَ الزَّمَانِ،
يُقَابِلُهَا الطَّغَاةُ فَيَمْضُونَ إِلَى مَصَارِعِهِمْ، وَيَمْتَدُّ ثِيَابُهَا إِلَى نَفُوسِ الصَّادِقِينَ مِنْ أَتْبَاعِهَا،
فَتَرَاهُمْ عِنْدَ لِقَاءِ الْقَتْلِ يَقُولُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ؛ فَرِحًا مُسْتَبْشِراً: «فَزَتْ رَبُّ الْكَعْبَةِ» !!
وَمَا رَأَيْنَا دَعْوَةَ اللَّهِ سَكَنَتْ قَلْبًا إِلَّا وَآثَرُهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَرَضِيَ أَنْ يَمُوتَ
دُونَهَا، وَأَنْ يَفُوزَ بِفِدَائِهَا.

أَمَّا الطَّغَاةُ فَهَمَّ كِبَابِلُهُمْ، أَوْ كَشِيَابَتُهُمْ لَا ثِيَابَ لَهُمْ.. عِنْدَ الْخَطَرِ يَتِرَّءُونَ مِنْ
عِقَائِدِهِمْ، وَيُعَادُونَ مَنْ أَطَاعَهُمْ أَوْ عَاوَنَهُمْ !!

وَانظُرْ إِلَى حُيَيْبِ بْنِ عَدِي رضي الله عنه وَهُوَ يُوَاجِهُ الْقَتْلَ:

يَقُولُ لَهُ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ: «أَنْشُدْكَ اللَّهَ يَا حُيَيْبُ، أَحَبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي
مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنْتَ فِي أَهْلِكَ؟»

فَيَقُولُ حُيَيْبُ رضي الله عنه: «وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ

(١) يونس: ٩٠.

(٢) النازعات: ٢٤.

(٣) الشعراء: من الآية ٢٩.

تُصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالسٌ في أهلي»

فقال أبو سفيان: « ما رأيتُ أحداً يُحبُّ أحداً، كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً ! »

ويطلب خيِّبٌ ﷺ ممن خرجوا لقتله أن يدعوه حتى يصلي ركعتين ! فقالوا له: « دُونَكَ فاركع »، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم يقول: « أما والله، لولا أن تظنوا أني إنما أطلتُ جَزَعاً من القتلِ، لاستكثرتُ من الصلاة »

الله أكبر.. إعلان عن دعوة الله، واستمساك بها، وموت عليها..

ما أعجبَ الإيمان حين تُخالطُ بشاشته القلوب !

* * *

بل انظر إلى الصفوة من أتباع دعوة الله، وقد أحاط بهم أهل الغدر ليقتلوهم، انظر إليهم وتدبر أمرهم؛ ل ترى ما صنعت دعوة الله في هذه النفوس.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَنْ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يَعْلَمُونَ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمْ "الْقُرَاءُ" فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ، وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِثُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَحْتَطِبُونَ (١) فَيَبِيعُونَهُ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، فَقَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَلَيْكَ وَرَضِيَتْ عَنَّا. قَالَ: وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا - خَالَ أَنَسَ - مِنْ خَلْفِهِ، فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَتَفَذَهُ، فَقَالَ حَرَامٌ: فُرْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَا قَدْ

(١) الاحتطاب : جمع الحطب.

لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِينَا عَنْنَا» (١)

ولنتأمل حال أولئك الصَّحْبِ الكرام الذين كتبَ اللهُ لهم الشهادة؛ لئرى أثرَ الدَّعْوَةِ فيهم..

أول ما يُطالعنا من أحوالهم أنهم:

١ - يقرءون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون:

هذا ليُهم، ليسَ بلاءَ ولا عابث، وإنما هو مضيءٌ بذكرِ اللهِ، مُسَبِّحٌ خاشعٌ..
فأيُّ طمأنينةٍ للقلب يجدها هؤلاء الذَّاكِرُونَ وهم يتدارسون كتابَ اللهِ ويتعلمونه!
إنهم يتعلمون لكي يعملوا، فلا خيرَ في علم لا يصحبه عمل.
ولننظر إليهم في نهارهم؛ لئرى أثرَ الدَّعْوَةِ فيهم.

٢ - وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد:

أي: يَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ مُسَبِّلاً لِمَنْ أَرَادَ اسْتِعْمَالَهُ لَطَهَارَةً، أَوْ شُرْبًا، أَوْ غَيْرَهُمَا.. وهذا - ولا شك - عملٌ بارٌّ ينتفع به المسلمون.
الآ تراهم يعملون بما علموا، فهم في نهارهم يُطَبِّقُونَ ما تدارسوه في ليلهم.
إنهم في الليل يقرءون القرآن ويُدركون مقاصده، وفي النهار يتحرَّكون بأمره،
ويتقلَّبون بوحيه، ويسعونُ بنوره.

إنهم كما وصفهم ربُّهم ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ فَجْرَةً وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ خَائِفُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٢)

(١) رواه مسلم.

(٢) النور: ٣٧.

إنهم عرفوا الطريقَ فتحدّد العزمُ والسلوك..

إنهم أيقنوا أن أنفسهم لله، لا لغيره، فأعزّوها بالاتجاه إليه، وشرّفوها بالإخلاص له، فلم يتورّعوا، أو يتميّعوا، أو يتردّدوا في اختيار الباقيات الصالحات.

إنهم استطاعوا - بفضل الله - أن يكونوا عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ (٢) ﴾ (١)

فهذا ليُلهم يُضَاء بالقرآن، ونهارهم عبقُ بصلاح الأعمال.

٣- ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة (١) وللفقراء:

أي نفوس هذه، وأي نخط من الرجال هؤلاء!

إنهم رجال ينتصر بهم دين، وتبلغ بهم رسالة، وتسعد بهم أمة، وتعد لهم جنة.

إنهم رجال انتصروا بدعوة الله على أنفسهم، فجدّ بهم أن ينتصروا - بعد ذلك - على كل ما يحول بينهم وبين مرضات ربهم.

إن الإنسان لا يُحدّل إلا من نفسه، ولا يُدلّ إلا من حرصه ((إنك لن تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك، بتغليب أمره على هواك))

وجدير هؤلاء أن يكونوا دُعَاة إلى الله تعالى.

٤- فبعثهم النبي ﷺ إليهم، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان:

ومن صفات هؤلاء الرجال وأحوالهم ندرك حكمة الرسول ﷺ في اختيارهم،

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) أصحاب الصفة هم: الفقراء الغرباء الذين كانوا يأوون إلى مسجد النبي ﷺ وكانت لهم في آخره صفة، وهو مكان مُنقطع من المسجد مظلل عليه يبيتون فيه.

وأهم نَمَطٌ من الناس جديرٌ أن يدعو إلى الله بأفعالهم قبل أقوالهم ((ومُعَلِّمٌ نفسه ومؤدبها أحقُّ بالاحترام من مُعَلِّمِ الناس ومؤدبهم))^(١)

ولكن يبدو أنهم ثمارٌ قد طابت، وأهم - برضى الله عنهم - قد أصبحوا أهلاً لسعادة الله الغالية.

إنهم دعوا إلى الله بأبلغ وأقوم ما يدعو إليه داع.

إنهم لم يُعَلِّمُوا أبناءَ جيلهم فحسب، بل علّموا الأجيال من بعدهم..

إن الله قد احتارهم دُعَاةً لا لفئة محدودة في عصرهم، بل جعلهم دُعَاةً مع الزمن الممتد إلى يوم الجمع..

إنهم في هذه الساعة لا يذكرون أنفسهم، ولا يقفون عند جراحاتهم، إنهم يذكرون ربهم، ويتذكرون نبيهم..

إنهم يُرسلون إليه يُشِرُّونه، ولكن من يحملُ رسالتهم؟ من يبلغُ عنهم؟

إنهم يلجئون إلى الله الذي لا يعجزه شيءٌ لكى يبلغُ عنهم.

إنهم لم يصلوا إلى المكان الذي أرسلوا إليه، وإنما وصلوا إلى أعلا مكان وأكرمهم ((فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، فَقَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنكَ، وَرَضَيْتَ عَنَّا))

رضي الله عنهم ورضوا عنه.. طلبوا من الله أن يبلغ عنهم نبيّه ﷺ، فكان لهم ما طلبوا، فقال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: ((إِنْ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قَتَلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنكَ، وَرَضَيْتَ عَنَّا)) ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١)

اللهم اجمعنا بهم في جنات النعيم (آمين).

(١) الأدب الكبير لابن المقفع: ٤/١.

(٢) التوبة: من الآية ٧٢.

رابعاً: قيامها على الإقناع والحجة

وأتساءل بعد ذلك: هل يمكن أن يكون هذا إلا عن اقتناع، ورضى نفس، وحب؟
إنها دعوة العقيدة التي تقوم على الإقناع والرضى، والحجة والبرهان.. وتلك من
خصائصها.

إنها دعوة الفطرة، والفطرة لا تكلف فيها ولا تعسف، ولا جبر ولا إكراه، ولا
عسر ولا حرج.

ولعل الذين هالهم نصرها، وأخذ أعينهم نورها - فحاولوا أن يُعللوا سرَّ عزَّتها
وامتدادها، وصمودها، وإيثارها على أنفس المؤمنين بها - قد آن لهم أن يعودوا إلى
الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها؛ لكي يظفروا بأنفسهم مؤمنين بها؛ ولكي يجدوا تعليلَ
الأمر في أنفسهم، وسرَّه في قلوبهم.

وعندئذ سيحمدون الله كما يحمده المؤمنون، ويقولون شاكرين لربهم فضله
ونعمه ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾^(١)

قالوا من قبل: إنها انتشرت بالسيف، وسيطرت بالقوة !!

وكان أجدى بهم أن يسألوا أنفسهم - قبل أن تنطق ألسنتهم -: ولماذا كان
السيف في يدها أمضى من كلِّ قوة متفوقة على عدوها؟

(١) الأعراف: ٤٣.

إنها لم تكن تملك الوفرة في العدد، أو التفوق في العدد حين تكالب الأعداء عليها، وأحاطوا بها.

وقد أحيطت بالأعداء من أول أمرها، والتقى على حربها جنود الباطل وأولياء الطاغوت، فظهرت عليهم وعلت، وانظروا أمام مدّها كما ينطوي الظلام الخائف الوجل أمام الضوء الزاحف المنتشر، مع أن العرب - حين عرض الرسول ﷺ دعوته عليهم - كانوا يخافون على أنفسهم أن يتخطفهم من حولهم إن هم استجابوا له، وآمنوا برسالته ﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِّعْ أَهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ۗ ﴾^(١)

والقرآن الكريم يذكر المؤمنين بنعمة الله ونصره وتأييده إذ كانوا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ﴿ وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَفَاوَنَكُمُ وَأَيَّدَكُمُ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٢)

الذين كانوا على هذا القدر من القلة والضعف، استجابوا لله وللرسول، وأخلصوا وصدقوا، وانتصرت دعوة الله في نفوسهم، فانتصروا على أعدائهم، وامتدوا بنورها يضيئون حياة الناس بالعدل والبر والرحمة.

فآثروها على أنفسهم مع حاجتهم وتكالب الأعداء عليهم!

آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فلم يكن النصر عندهم بأفضل من الشهادة، ولم يكونوا يرون تربص العدو بهم إلا إحدى

(١) القصص: من الآية ٥٧.

(٢) الأنفال: ٢٦.

الحسينين: إما أن يفوزوا بنصر أو شهادة.. فإن كانت الشهادة فَنِعْمًا هي، وإن كان النصر فهو ثابت، فلا يُرى إلا مُقيماً للصلاة، مُؤدِّياً للزكاة، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، يدين بالفضل لله، فلا يزهو بنصر ولا يتيه، بل يزداد تواضعاً لله في البرِّ بعبادته.

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (١)

فهل يمكن إلا أن تكون الدَّعْوَةُ - في ذاتها - هي المؤثرة في نفوس هؤلاء، وهم يرون أن أفضل ما ينالهم منها الشهادة في سبيلها؟!

إن الدَّعْوَةَ التي تُفرضُ على الناس بالقوة لا يمكن أن تعيشَ بين الناس حين ينتهي عملُ القوة، وما رأينا إنساناً آمنَ بما ثم انصرفَ عنها، أو حتى مُكرهاً على تَرْكِهَا، بل رأينا صوراً شتى من الإكراه تقعُ على المؤمنين بها، فلا يزيدهم إلا استمساكاً بها، وكم من مُعلنٍ عن ولائه لها وهو يواجه الموتَ أو القتلَ في سبيلها.

إن الفتنَةَ التي دخلت الإسلامَ في بدء الدَّعْوَةَ، وظلَّت طيلة الفترة المكية تلقي ألواناً من العذاب، وصنوفاً من البلاء، لم يُرهبها سيفُ الرسول ﷺ على الدخول في هذا الدين، بل أُرهبها عذابُ قريشٍ على الخروج منه - وهي تملك أسبابَ القوة والغلبة - فلم تُفلح أمام الإيمان المسالم، ولم تستطع أن تعودَ بإنسانٍ واحدٍ إلى الكُفْرِ بعد الإيمان.

وقد هاجر الرسول ﷺ وأصحابه بعد أن اجتمعت قريش على قتله، وتركوا دورهم وأموالهم ابتغاء مرضات الله..

إن الذين آمنوا بهذه الدَّعْوَةَ آثروها على أنفسهم وأموالهم، ولم تستطع ألوانُ

(١) الحج: ٤١.

الإغراء والبلاء أن تصرف عنها واحداً منهم.

إن الإكراه قد وقع للصدِّ عنها، ولم يقع - قط - للدخول فيها..

إنها عقيدة تُعرض على الفكر والقلب؛ ليقطع فيها بالقبول أو الرفض..

سبيلها الحجّة والإقناع، وآياتها تُتلى في كتاب.

وإرادة الإنسان - إزاء ما يُقرأ أو يُسمع - تصيخ للكلمة نفسها، دون خضوع

لمعجزاتٍ مادية تبدو معها إرادة الإنسان وكأنها مُنقادة ومُرغمة على الخضوع..

لقد قدّمت المعجزاتُ المادية - قبل الرسالة الخاتمة - عوناً للإنسان على إدراك

الحقّ الذي يدعى إليه، ولكن المعجزة في الرسالة الخاتمة لم تكن على نحو ما سبق.

إن المعجزة المادية يتأثرُ بها من رآها، أو عاش في عصرها، فهي تناسبُ

الرسالات الموقوتة، وتُناسب إنسانَ عصرها، أما في الدَّعوة الخاتمة فليس إلاّ الكلمة،

والكلمة - وحدها - محفوظة في كتابٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛

ليقع الإقناع من داخل النفس، لا من خارجها.

وكم من نفوسٍ استحابت لدعوة الله بآية تُليت، وكم من سيوفٍ رُفعت عليها

ثم نُكست خاشعة أمام سُلطانها.

ومن رأى عمر رضي الله عنه وهو يمضي باحثاً عن محمد ليقتله - ليأخذه العجب وهو

يراه يتحوّلُ بآياتٍ تُليت، فيمضي باحثاً عن محمد رسول الله ﷺ؛ ليؤازره ويناصره.

إن هذا التحوّل في نفوسٍ عُرفت بإصرارها وتمسكها بما ورثت من تقاليدها -

تحوّلها إلى موقف التأييد والجهاد، والتضحية في سبيل ما آمنت به - جديرٌ أن يدفع

النفوسَ إلى معرفة الحقيقة والوقوفِ عندها.

وكلُّ تأويلٍ لنصرها يبعُدُ عن فطرة الدَّعوة لا يثبتُ أمامَ النظرِ والتمحيصِ.

إنها قد غرت القلوبَ حيثُ لا دولة ولا سلطان، وطوَّعتها للخير، فوجدت نفسها تحيا بها، ولا ترى الحياةَ بدُونها.

﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

إن الدَّعوةَ الإسلاميَّةَ لم تعتمد - قط - في نشرها على الإكراهِ والبطشِ. والقوَّة - مهما بلغت - أعجزُ عن أن تُقيمَ عقيدةً، أو تحوِّسَ دعوةً، ما لم يكن للعقيدة أصالتها، وللدعوة عواملُ بقائها.

وكم هُزِمَ المسلمون وبقيَ الإسلامُ. وكم ديسَت دياره فسيطر على الغاصبين نُوره، فتحوَّلوا من العداوة إلى الحُبِّ، ومن الحربِ عليه إلى التَّصرةِ والتأييدِ له.

وهذه آياته البينات تُتلى ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢)

يقول الإمامُ الرازي في تفسير هذه الآية: ((إنه تعالى لما بيَّن دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للمعذرة، قال بعد ذلك: إنه لم يبق - بعد إيضاح هذه الدلائل - عُذرٌ للكافر في الإقامة على كُفره، إلا أن يُقسِرُ على الإيمان، ويُجبرَ عليه، وذلك ممَّا لا يجوز في دار الدنيا - التي هي دار الابتلاء - إذ أن في القهر والإكراه على الدين بطلانٌ معني الابتلاء والامتحان)) (٣)

(١) الأنعام : ١٢٢.

(٢) البقرة: من الآية ٢٥٦.

(٣) تفسير الرازي : ٤٥٤ / ٣.

ولعلّ الذين حاولوا أن يُعلّلوا انتصارها بعِللٍ تُرضي ما تحمله صدورهم من حسدٍ وحقْدٍ، لعلّهم أدركوا أن هذه العِللَ قد أساءتْ إليهم وهم الذين يزعمون التمسكَ بالموضوعية، ويؤمنون بنتائج التجربة والملاحظة.

لعلّ التجاربَ قد أقتعتهم أن ما يُرددونه - من اعتماد هذه الدّعْوَةِ على وسائلٍ خارجةٍ عن فطرتهما - فاسدٌ يُكذبه الواقعُ، باطلٌ يزهقه الحقُّ، فجاءت تصرّياتهم - من بعد - كاشفةً عن حقيقة ما كانوا يُخفون من قبل.

ومن أبيّن التصريجات الدّالة على ما في صدورهم، والكاشفة عن عمق إدراكهم لسرِّ انتصارها.

* يقول "غلاستون" رئيس وزراء بريطانيا السابق: « ما دام هذه القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق »^(١)

* ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مئة عام على استعمار الجزائر: « إننا لن نتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، ومن ثمَّ يجب أن نُزيل القرآن العربيَّ من وجودهم، ونقتلع اللسانَ العربي من ألسنتهم »^(٢)

* ويقول "مورو بوجز" في كتابه "العالم العربي المعاصر": « إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام. يجب محاربة الإسلام؛ للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدّي إلى قوتهم؛ لأن قوة العرب تتصاحب - دائماً - مع قوة الإسلام وعزّته وانتشاره. إن

(١) دَمَرُوا الْإِسْلَامَ أَبِيدُوا أَهْلَهُ: ص ٣١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

الإسلام يُفزعنا عندما نراه ينتشر بيسرٍ في القارة الأفريقية» (١)

* ويقول المنصّر "تاكلي": «يجب أن يُستخدم القرآن - وهو أمضى سلاح في الإسلام - ضدّ الإسلام نفسه؛ حتى نقضي عليه تماماً. يجب أن يُبين للمسلمين أنّ الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأنّ الجديد فيه ليس صحيحاً» (٢)

* ويقول "مرماديوك باكتول": «إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروا بها سابقاً، بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول؛ لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام رُوح حضارتهم» (٣)

* بل يقول "صمويل زويمر" رئيس جمعيات التنصير، في مؤتمر القدس المنعقد عام ١٩٣٥م: «إن مهمّة التبشير التي ندبّتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، إن مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام؛ ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون - بعملكم هذا - طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية.. لقد هيأتم جميع العقول - في الممالك الإسلامية - لقبول السير في الطريق التي سَعِيتم إليه، ألا وهو إخراج المسلم من الإسلام.. إنكم أعددتُم نشأً لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، أخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشأ الإسلامي مطابقاً لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بعظائم، ويحب الراحة والكسل، ويسعى للحصول على الشهوات بأي أسلوب، حتى أصبحت الشهوات هدفة في الحياة، فهو إن تعلّم فللحصول على

(١) المرجع السابق: ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٥٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٥١.

الشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات.. إنه يوجد بكل شيء للوصول إلى الشهوات.. أيها المبشرون: إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه أ.هـ»^(١)

وأنت ترى - فيما نقلت لك وفيما نشاهده - أن كلماتهم قد جاءت معبرة عن فهم صحيح لفطرة الإسلام، ومعرفة لعوامل القوة الحقيقية في نفوس المسلمين، فجاءت خططهم مبنية على فهم ومعرفة.. جاءت لتدمر الإسلام أولاً في نفوس المسلمين، واستعمارها من داخلها، وهم موقنون أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على شبر من أرض المسلمين وإبقائه في أيديهم، قبل أن يُحسنوا الاستيلاء على نفوس المسلمين وإبعادهم عن مصدر قوتهم (وهو الإسلام).

وهذا ما يُفسّر لنا سرّ التآمر على كل صوت يرتفع مُنادياً به أو داعياً إليه.

وكل ما تراه أمام نظرك - من سَطوة للعدو على أرض الإسلام - قد مهّد له بأساليب متنوعة في إبعاد المسلمين عن دينهم؛ لاشتغالهم بأنفسهم، وتحقيق التنازع بينهم، فيفشلوا وتنهب ريجهم.

بعد أن مهّد العدو لإسرائيل، وصنع لها نصراً ثملت به وبطرت (عام ١٩٦٧م) ذهب وزير خارجيتها "أبا إيبان" في الشهر الأخير من هذا العام؛ ليحضر جلسات الأمم المتحدة، فألقى محاضرة في جامعة "برنستون" فكان مما قاله فيها: ((يحاول بعض الزعماء العرب أن يتعرّف على نسبه الإسلامي بعد الهزيمة الأخيرة، وفي ذلك الخطر الحقيقي على إسرائيل، ولذا كان من أوّل واجباتنا أن نُبقي العرب على يقين راسخ بنسبهم القومي لا الإسلامي))^(٢)

إنهم يدركون - تماماً - مصدر القوة في نفوس المسلمين، ويعوّن تجربة التاريخ،

(١) المرجع السابق: ص ٥٣.

(٢) الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي، ماجد الصلبي: ص ٣٢٨.

ويعلمون أن أمضى أسلحتهم وأبعدها أثراً في تحقيق نصرٍ لأنفسهم أن يكون المسلمون في بُعد عن الإسلام وتكرُّهه.

من هنا كانت المؤامرات والشعارات والمذاهب الدَّخيلة، سواء في مجال الاعتقاد، أو الاقتصاد، أو الاجتماع، أو السياسة.. وكان الهدف منها - جميعاً - قيام بديل عن الإسلام تُشعلُ به النفوس، وتُقام باسم الشعارات ثورات تُلقب بـ "التَّقدمية"، ويوصفُ غيرها بـ "الرجعية"، ويقع صراعٌ بين المسلمين أنفسهم في المفاضلة بين هذا وذاك، والمخاصمة، بل القتال !!

وهنا تكون الخسارة عليهم جميعاً، والربح للعدو وحده.

وليست الماسونية، أو العلمانية، أو الاشتراكية، أو القومية، إلا أدوات يحقق بها العدو مقاصده في تدمير الإسلام وأهله.

والواقع المعاصر - بنتائجه - ماثلٌ أمام الأعين، لا يحتاج إلى دليل.

والعدو - بعد ما هيئت له كافة السبل لإبعاد الإسلام عن الساحة - يعلن - في صراحةٍ وبلا خفاء - أن الخطر عليه يكمنُ في تعرفُ العرب على نسيبهم الإسلامي.

وكانه قد ضمن - قبل جولته في عام ١٩٦٧م - أن العرب قد بعدوا تماماً عن هذا النسب، فمضى يصولُ في فراغٍ لم يُبال فيه بعددٍ ولا كمٍّ.. فلا قيمة لعدد المسلمين بلا مضمون، وهم - بغير إسلامهم - كمٌّ مهمل لا يُحسب له حساب، وهو يعلم أنه قد ربح هذه الجولة في غيبة الإسلام وإبعاده عن الساحة، بل بعد التآمر على المنتسبين إليه في صورة مفتعلة لم يسبق لها نظير.

ولم تكن نتيجة التآمر إلا لصالحه..

وحشي - بعد هذه الجولة - أن يفيق العرب، وأن يتلمَّسوا سرِّ نكبتهم، وأن يعودوا - وقد بطلت أمامهم الشعارات الكاذبة التي أرَدتْ بهم إلى نكبةٍ لم يسبق مثلها في التاريخ - أن يعودوا إلى موطنِ عزِّهم، وإلى شرفِ نَسَبهم، وهم يريدون للعرب أن يعتزُّوا بأيِّ شيءٍ لديهم إلاَّ الإسلام، وأن يتغفوا العزَّ في أيِّ ماضٍ لهم غير ماضي الإسلام. إنه يدرك - تماماً - أين يكمن الخطر.

ولستُ أدري هل هي نشوةُ النَّصر؟ أم اطمئنانه إلى بلاده، وعمق البُعد عن الإسلام هي التي جعلته يقول هذا التصريح المخالف لطبيعته في المكر والخبث والدهاء: ((إن الخطر الحقيقي على إسرائيل أن يتعرف العربُ على نَسبهم الإسلامي))!؟ ولعلَّ الأصوات التي ارتفعت - مجرد الأصوات - بعد لعنة ١٩٦٧م تُطالب بالعودة إلى الله قد أزعجته.

وهل هناك طريقٌ لعزِّ أُمَّتنا غير الفرارِ إلى الله والتمسكِ بدينه؟!؟

إن إسرائيل تعرف أن ضمانَ وجودها لا يكمن في اتفاقٍ بينها وبين الدول التي تُحيط بها، بقَدْر ما يكمن في إضعافِ قوَّة الإسلام في المحيط التي تعيش فيه، فطالما الرُّوح الإسلامية باقية وقوية في هذا المحيط، فإن أمانَ إسرائيل - من وجهة نظرها، وهو في الواقع كذلك - مهدَّدٌ بخطِّرٍ يوماً ما. (١)

((فأزمةُ الشرق الأوسط - كما يسمُّونها - ليست هي الأزمة بين إسرائيل والبلاد العربية، وإنما هي أزمةُ الإيمان بالله، أزمة الإسلام في وجوده وفي بقائه في هذه البلاد، هي أزمته في مطاردته، وفي إضعاف الترابط على أساس منه في المنطقة.

(١) نقلًا عن: خمس رسائل للشباب المسلم، محمد البهي، ص ١٤.

فالأزمة باقية ومُتَحَجِّرة - في ظاهرها - بين إسرائيل والعرب، وفي حقيقة أمرها هي بين أمن إسرائيل ووجود الإسلام، حتى يضعف الإسلام بفعل المطاردة "الثورية" لقيمه ولتؤسساته، ولمبادئه ورجاله، وهذه المطاردة الثورية للإسلام تزداد عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة في التَّظُم الثورية، والإجراءات التي تُتَّخَذ ضد الكتاب الإسلامي، والمؤسسات، والمعاهد والمنظمات الإسلامية.

ومنطق الصهيونية العالمية هو الإبقاء على هذه المطاردة للإسلام، بالمحافظة على استمرار هذه التَّظُم الثورية في الحكم، وتوجيه الفريقين - أصحاب الماركسية الراديكالية، وأصحاب الرأسمالية العلمانية معاً - ليس فقط لصالح إبقاء هذه التَّظُم في منطقة الشرق الأوسط، بل لقبول المزيد منها، أو للسعي إلى المزيد منها في هذه المنطقة.

والمتوقَّع - حسب المنطق الصهيوني - أن يزداد عددُ تَظُم الحكم الثوري في هذه المنطقة، وبالتالي تشتد المطاردة للإسلام كلما مرَّ الزمن على هذه الأزمة المتحجِّرة المتحركة، فهي مَحْمَدَة في وضعها السياسي والعسكري، ولكنها متحركة بعُنف في وضعها الأيديولوجي ضد الإسلام))^(١)

إن العدوَّ يعرفُ تماماً متى ينحسرُ مدُّه وتقعُ هزيمته، فهو يباعد بينه وبينها، يباعد المسلمين عن أسباب النصر، وهو بخيرٍ ما كثرت الشعارات بعيداً عن الإسلام، ولها بها اللاهون، وعبث العاشون.

لقي وزيرُ الدفاع الإسرائيلي - في إحدى جولاته - شاباً مؤمناً في حيٍّ من أحياء قرية عربيةٍ بأسلة، فصافحهم بحُبِّ يهودي غادر، غير أن الشابَّ المؤمن أبى أن يُصافحه، وقال له: ((أتم أعداء أُمَّتنا، تحتلون أرضنا، وتسلبونا حريتنا، ولكن يوم

(١) المرجع السابق: ص ١٧.

الخلاص منكم لا بُدَّ آتٍ بإذن الله؛ لتتحقق نبوءة الرسول ﷺ))

فابتسم "دايان" الماكر، وقال: ((حقاً، سيأتي يوم نخرج فيه من هذه الأرض، وهذه نبوءة نجد لها في كتبنا أصلاً، ولكن متى؟))

واستطرد اليهودي الخبيث قائلاً: ((إذا قام فيكم شعب يعتزُّ بترائه، ويحترم دينه، ويُقدِّر قيمه الحضارية، وإذا قام فينا شعبٌ يرفض ترائه، ويتنكر لتاريخه.. عندها تقوم لكم قائمة، وينتهي حكم إسرائيل))^(١)

وصدق الله العظيم ﴿ وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِمَّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾^(٢)

وعند الاستحابة أو الطواعية لما يودّه هؤلاء نفقد النُصرة والمعين.

﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنْ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۗ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾^(٣)

إنه القرآن تُرى آياته في واقع عملي يشهد أنه الحق.

ولكن لماذا كلُّ هذا العداء!؟

هل لأن الدَّعْوَةَ إلى الله تتربصُ بأحدٍ سوءاً؟ أم لأن الإسلام - دين الله للعالمين - يُعلي جنساً على جنسٍ، ويدعو لغير الرحمة بالناس جميعاً!؟

(١) فصل الدين عند الدولة ضلالة مستوردة، يوسف العظيم: ص ٦٣، ٦٤.

(٢) البقرة: من الآية ١٠٩.

(٣) البقرة: ١٢٠.

لا وربك.. إهم يعرفون حقيقته، ولكنه البغي وطلب العلو في الأرض بالفساد.
ولو تجرد جميع الناس من أهوائهم لوجدوا أنفسهم مع الإسلام، وتلك دعوته
تحملها آية من آياته.

﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا
اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(١)

* * *

(١) آل عمران: ٦٤.

خامساً: غايتها الرحمة للعالمين

ومن خصائص الدعوة إلى الله أنها « دعوة من الله وإلى الله ».

لذا فإنها تقرأ من العنصرية في شتى صورها، فهي ليست لإعلاء جنسٍ على جنس، ولا لسيطرة قومٍ على قوم.

- هي لإعلاء كلمة الله.

- وإقامة ميزان الله في الأرض؛ ليقوم الناس بالقسط.

- هي لتعريفهم بأنفسهم؛ صوناً لهم من الكبرِ والبغي والتسلط.

- وتبصيرهم بعاقبتهم؛ حتى لا يعودوا فريسة التنافس المسعور على التكاثر في دارٍ متاعها قليل.

وكلُّ تنافسٍ في غير سبيل الله مُثيرٌ للفسادِ، مُقطعٌ للروابطِ، مُهلكٌ للعبادِ.

وكلُّ تنافسٍ في الإقبال على الله يزيد من مودة الناس وبرهم، وإيثارهم ومؤازرتهم.

- هي لحياتهم جميعاً؛ حتى لا يموت غنيهم بالتخمة، ويهلك فقيرهم بالمسغبة.

الدعوة إلى الله تعني: الفرار إلى الله؛ حتى تقرأ النفوس من نية السوء، وينعم الناس بطهر السلوك.

وإذا عرف الناس ربهم لزموا خشيتَه، وإذا تدبروا نعمةً أعلنوا شكرَه، وإذا استجابوا لدعوة الله تعموا بالحياة، وسعدوا بالنجاة.

﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ ﴾^(١)

* * *

إن غاية هذه الدُّعْوَة هي الرحمة بالناس جميعاً ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٢)

ولا رحمة بغير إيمانٍ بآلهِ واحدٍ تنتهي معه جميعُ النزعات العنصرية في شتى صورها، فلا يتفاضل الناسُ فيما بينهم بجنس ولا لون، ولا بحسب ولا نسب؛ لأن أصلهم واحدٌ، وربُّهم واحد.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣٠﴾ ﴾^(٣)

إنه دينٌ ينشُدُ التعارفَ بين الناس جميعاً، فلن يُعاديهِ إلا ذو هويٍّ يُريد أن يَقتل من ضوابط الحق والعدل.

(١) طه: ١٢٣-١٢٧.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) الحجرات: ١٣.

إن الرحمة لا تقوم مع ظلم الناس بعضهم لبعض، فلا بُدَّ من قيام العدل سبباً من أسباب الرحمة، ولا بُدَّ أن تتحدّد الحقوق وأن تُعرَف الواجبات؛ حتى تكون الرحمة معنىً إيجابياً يُرى في إقرار الحق وإقامة العدل.

والإيمان بالله الواحد الأحد هو أقوى أسباب الرحمة، بل هو الأصل الذي لا تقوم ولا تتحقّق إلّا به؛ لأن ضوابط الحق والعدل لا تكون إلّا من الله الغني عن العالمين، الذي أحاط بكلّ شيء علماً، وأعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى.

ولن يكون إيمان بغير الرضى بحكمه، وخضوع النفوس لشريعته، وعدم اتّباع الهوى في رغبات النفس أو مصالح الغير؛ فإن اتّباع الهوى يُضِلُّ عن سبيل الله، والضلال عن سبيل الله لا يكون إلّا بنسيان يوم الحساب.

﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(١)

إن الرحمة التي تنشدها دعوة الله للعالمين رحمة تقوم على ضوابط تُحدّد بها الطيبات، وتُعرَف الخبائث، ويتبيّن الحلال والحرام، وتُحترم الحقوق، وتُصان الواجبات.

ولقد حدّدت الدّعوة منطقتها العمليّة في تحقيق الرحمة بين الناس في قول الرسول ﷺ: « أَنْصِرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصِرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصِرُهُ؟ قَالَ: تَحْجِرْهُ، أَوْ تَمْتَعْهُ مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»^(٢)

(١) ص: ٢٦.

(٢) رواه البخاري.

منطقُ الدَّعْوَةِ على لسان خاتم الرُّسُل ﷺ - كما تراه - إيجابيٌّ في تحقيق الرحمة، عمليٌّ في فرض أسبابها ورفع موانعها.

♦ فكلُّ ما يحول بين تحقيق المودَّة والتراحم بين الناس تنهى الدَّعْوَةَ عنه، وكلُّ ما من شأنه أن يُحقِّق البرَّ والرحمة بينهم تأمر به وتدعو إليه.

فالسخرية، واللمز، والتنايز بالألقاب، والغيبة، والنميمة، والظلم، والغدر، والفحشاء والمنكر.. أمورٌ تُثير الشحناء، وتُحقق البغضاء، وتُدمرُ الرِّوابط، وهي في نظر الإسلام محرَّماتٌ ينهى عن الاقتراب منها، أو الوقوع فيها.

والعدلُ، والبرُّ، والإحسانُ، والصدقُ، والصبرُ، والحلمُ، والوفاءُ بالعهد، طيبات يأمرُ الإسلامُ بها ويدعو إليها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۗ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ "أكثم بن صيفي" مخرج النبي ﷺ، فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه، وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتأت إليه! قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه، فانتدبَ رجلان، فأتيا النبي ﷺ، فقالا: نحن رُسلُ أكثم بن صيفي، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله» قال: ثم تلا عليهم هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

(١) النحل: ٩٠.

أَلْفَحْشَاءٍ وَالْمُنْكَرَ وَالْبَغْيَ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾ قالوا: اردد علينا هذا القول، فردده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكنتم فقالوا: أئبى أن يرفع نَسَبَهُ، فسألنا عن نَسَبِهِ فوجدناه زاكِي النَّسَبِ، وَسَطًا فِي مُضَرٍّ، وَقَدْ رَمَى إِلَيْنَا بِكَلِمَاتٍ قَدْ سَمِعْنَاهَا، فَلَمَّا سَمِعَهُنَّ أَكُنْتُمْ قَال: ((إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمتها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا فيه أذناناً. أهـ))^(١)

• وما من أمرٍ نهي الإسلامُ عنه إلا ويتخلف معه سببٌ من أسباب التراحم، وما من أمرٍ دعي إليه إلا ويكون عاملاً من عوامل الرحمة بينهم.

فالصلاة يقومُ بها التراحم بين الناس، وإن ضيَّعت فَقَدَ النَّاسُ نِعْمَةَ اللِّقَاءِ عَلَى اللَّهِ وَالسَّلَامَ وَالنَّقَاءَ وَالطُّهْرَ.

وَالزَّكَاةَ إِنْ ضَيَّعَتْ فَقَدَ النَّاسُ نِعْمَةَ التَّرَاحِمِ بَيْنَهُمْ، فَهَلَكَ غَنِيُهُم بِالثُّخْمَةِ، وَأُحِيطَ بِالْبُغْضِ وَالكَرَاهِيَةِ، وَمَاتَ فَقِيرُهُمْ بِالْمَسْعَبَةِ، وَقَدَّ نِعْمَةَ الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ..

وَالْإِيمَانَ - بِمَقُومَاتِهِ - إِنْ فَقِدَ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَعَ التَّنَافُسُ الْمَسْعُورُ عَلَى حُطَامِ الْحَيَاةِ وَزَيْتِهَا، وَخَسِرَ النَّاسُ دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ.

فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَمْرٌ بِهِ رَحْمَةٌ بِعِبَادِهِ، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ نَهْيٌ عَنْهُ رَحْمَةٌ بِعِبَادِهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، لَا تَزِيدُ طَاعَتَهُمْ فِي مُلْكِهِ شَيْئاً، وَلَا تُنْقِصُ مَعَاصِيَهُمْ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئاً، إِنَّمَا هِيَ الرَّحْمَةُ بِهِمْ، يَأْمُرُ اللَّهُ بِهَا وَيُجَازِي عَلَيْهَا، وَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

روي البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « لا

(١) تفسير ابن كثير: ٥٩٦/٤.

يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ» (١)

❖ ولم تكن الرحمة المنشودة في منطق الدعوة لبني آدم وحدهم، بل تمتد إلى كل ذي

كبد، ففي الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَطْرِيقُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ (٢) يَأْكُلُ التُّرَى (٣) مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي. فَنَزَلَ الْبِئْرَ، فَمَلَأَ خُمْفَهُ مَاءً، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِن لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لِأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ (٤)» (٥)

وفي رواية أخرى: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا (٦) رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ (٧) بِيئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ (٨) لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَتَزَعَّتْ لَهُ بِمُوقِهَا (٩) فَغَفِرَ لَهَا» (١٠)

وفي الحديث المتفق عليه، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ، رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمَهَا وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ حَشَشِ (١١) الْأَرْضِ» (١٢)

(١) متفق عليه.

(٢) اللَّهْثُ: هُوَ ارْتِفَاعُ النَّفْسِ مِنَ الْإِعْيَاءِ، وَالْمَعْنَى أَخْرَجَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ.

(٣) يَأْكُلُ التُّرَى: أَي يَلْعَقُ التُّرَابَ التَّدِيَّ.

(٤) أَي كُلِّ كَبِدٍ حَيَّةٍ، وَالْمُرَادُ رُطُوبَةُ الْحَيَاةِ، أَوْ لِأَنَّ الرُّطُوبَةَ لِأَزِمَةٍ لِلْحَيَاةِ فَهِيَ كِنَايَةٌ.

(٥) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٦) الْبَغِيَّةُ: هِيَ الرَّائِيَّةُ.

(٧) يَطِيفُ: أَي يَدُورُ حَوْلَهَا.

(٨) أَدْلَعَ لِسَانَهُ: أَي أَخْرَجَهُ لِشِدَّةِ الْعَطَشِ.

(٩) الموق: هُوَ الْخُفُّ، فَارِسِيٌّ مُعْرَبٌ.

(١٠) رواد مسلم.

(١١) حَشَشِ الْأَرْضِ: هَوَامُّ الْأَرْضِ وَحَشَرَاتُهَا مِنْ قَارَةٍ وَنَحْوِهَا.

(١٢) متفق عليه.

روي أبو داود بإسناد صحيح، عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال: «أردفتني^(١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسْرَ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ^(٢) قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا حَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْحَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْحَمَلُ؟ فَجَاءَ فِتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَأَ إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِبُهُ^(٣)»^(٤)

إنها الرحمة بكل شيء، وهي لا تُنزع إلا من شقيٍّ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٥)

• إنه ينشد الرحمة للناس جميعاً، ويرجو لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار، يرحوها لهم، ويأسي إن فوتوها على أنفسهم ﴿ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾^(٦)

إنه ينشدها لهم في إيمانهم برّبهم، وإسلامهم لخالقهم، ورحمتهم بأنفسهم.

روي البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ

(١) أردفتني: أي حملني خلفه على ظهر الدابة.

(٢) حائش النخل: نخلات بجمعة.

(٣) تدببه: تبعه بكثرة ما تستعمله.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) الأنبياء: ١٠٧.

(٦) الكهف: ٦.

ﷺ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُوذُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمَ. فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ - وَهُوَ عِنْدَهُ - فَقَالَ لَهُ: أَطَعُ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَحَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ» (١)

• وأنت تسمع من فمه الطاهر ﷺ ما يُحقق أسباب الرحمة ويحول بين تقاطع الناس وتدابيرهم.

روي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضْرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » (٢)

أرأيت كيف تُقامُ الحواجزُ بين الناس وبين الإساءة إلى أنفسهم، في أيِّ صورة من الصور ؟

أرأيت كيف يأتي الجزاءُ وفاقاً لمن أباي التَّراحمَ بالإساءة أو الظلم ؟

• ولا يكتفي - في مجال التراحم - بالإمساك عن أسباب القطيعة والتدابير، بل نراه ﷺ يأمرُ بتحقيق أسباب الرحمة بالعمل الإيجابي.

ففي الحديث المتفق عليه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يَعْمَلُ بِيَدِهِ،

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيَمْسِكِ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ» (١)

الله أكبر.. عملٌ إيجابيٌ يُحقق المودَّةَ والرحمةَ أو إمساكًا عن الشرِّ؛ حتى لا يقع ما يُنافيها!

• بل تراه ﷺ يربطُ عواملَ البرِّ والرحمةِ بالإيمان، ويجعل من مقتضياته أن يكون المؤمنُ إيجابياً في تحقيق الخير والكفِّ عن الشرِّ؛ حتى تتمَّ الرحمةُ للناس جميعاً.

روي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ
كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» (٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا
يُؤْمِنُ. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ» (٣)

وفي رواية لمسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ» (٤)

* * *

أرأيت.. إن غاية الدَّعوة إلى الله الرحمةُ بين الخلق، بأسلوبٍ عمليٍّ يقومُ على
العدل بين الناس بلا تفرقة، وعلى الحقِّ بلا مُحاباةٍ أو مُجاملةٍ..

وهذا نداؤها في آيتين من سورتين متجاورتين، سورتي النساء والمائدة:

﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُؤُوتًا كُؤُوتًا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) البَوَائِقُ: جَمْعُ بَائِقَةٍ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ وَالشَّيْءُ الْمُهْلِكُ، وَالْأَمْرُ الشَّدِيدُ الَّذِي يُؤَافِي بَعْتَهُ.

(٥) رواه مسلم.

أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا هَوَىًٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ (١)

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

إن فوات العدل نذيرُ فقدانِ الرحمة، ومجازرة الحقِّ دليلُ تسلُّطِ الهوى.

والعدلُ لا يُتركُ تحديده لأصحابِ المصلحةِ أنفسهم، فإنَّ الناسَ لا يسلمون من نزغاتِ الهوى، وهم ينظرون إلى قضاياهم من خلال مصالحهم، فما يراه هؤلاء عدلاً بالنسبة لهم، قد يراه الآخرون ظلماً.

من هنا كان من رحمةِ الله بخلقه أن أرسل الرُّسُلَ بالبينات، وأنزل معهم الكتابَ والميزان؛ ليقومَ الناسُ بالقسط.

فكانت الدَّعْوَةُ إلى الله - بهذا - مجردةً من كُلِّ نقصٍ يعتري دعواتِ البشر؛ لأنها ليست من وُضِعَ أحدٌ منهم، بل هي من الله ربِّ العالمين، وهو - وحده - الذي ليس كمثلِه شيء، ولم يكن له كُفُوًّا أحد، والناس - بعد ذلك - أشباهٌ وأندادٌ، كُلُّهم مخلوقون، وكُلُّهم عباد.

والله الغني عن العالمين هو الذي يُقسِّمُ الحقوقَ دون مُحاباةٍ أو تحاملٍ، ومن هنا

(١) النساء : ١٣٥.

(٢) المائدة : ٨.

تأتي شريعته بالحق المبين الذي يعلو على مصالح وأهواء الأفراد والجماعات، والطبقات والطوائف والجنسيات.

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾^(١)

وجاءت شرائع الله تُقيمُ الحقَّ، وتُجري العدلَ بين الناس على أساسٍ راسخٍ متينٍ من العقيدة التي تضربُ جذورها في الأعماق.. وجاءت هذه الشرائع تُوافقُ ظروفَ الناس الزمانية والمكانية، ومطالبهم في تلك الظروف.

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾^(٢)

ومن هنا تطوّرت الرسالاتُ الإلهية في التشريع، وإن توافقت في العقيدة، كما قال القرآن على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾^(٣)

وكانت بعضُ المحرّمات تُقدَّر - قديماً - بمشابهة عقوبات لأهل الدِّين جزاءً

(١) البقرة: من الآية ٢١٣.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) آل عمران: من الآية ٥٠.

انحرافٍ اقترفوه.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ^ط وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ
بِعَظْمٍ^ط ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٦١﴾^(١)

﴿ فَيُظَلَّمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِيهِمْ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٢﴾^(٢)

وقد جاء المسيح عليه السلام يُحِلُّ لهم بعض الذي حُرِّمَ عليهم، وجاء الإسلام يعلنُ
الأساسَ الموضوعيَّ في التحريم ﴿ وَحُجِّلَ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَحُرِّمَ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ ﴾^(٣)،
وجعل أحكامَ شريعته للعقاب مقصورةً على شخصِ الجرمِ وحده؛ إذ لم يُعدِّ ثمةً مجالاً للدينِ
آخر يرفعُ عن الناسِ مثل تلك الأحكام الجزائية العامة المؤبدة، التي كانت تُفرض قديماً على
الجميع، حتى يُبعثَ رسولٌ جديد، فيخففها عنهم.^(٤)

* * *

(١) الأنعام: ١٤٦.

(٢) النساء: ١٦٠.

(٣) الأعراف: من الآية ١٥٧.

(٤) الفكر القانوني الإسلامي. أحمد فتحي عثمان، ص ٧، ٨.